اعداد : لجنة الدراسات الحضارية

علي ومسيرة الحضارة الإسلامية /٢

ملخّص

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) واصل مسيرة الإحياء بعد رسول الله(ص)، وبذلك صان المسيرة الحضارية الإسلامية من الجمود والركود. نهج البلاغة وثيقة هامة في حقل الإحياء والاستنهاض الحضاري، سواء في رسائله أو خطبه أو كلماته القصار. وهذه وقفات عند كلماته القصار.

مقدمة:

الدين الإلهي مشروع لإحياء البشرية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال/٢٤)ومظهر هذا الإحياء الحركة التكاملية.. حركة في كل ما أودعه الله في الإنسان من طاقات ماديّة ومعنويّة لاستثمارها فيما «ينفع الناس» أي لصالح البشرية.

هذا المشروع يقوم على أساس منهج ثقافي (يحرّك) و(يوجّه).

الحركة تتطلّب تحرير الإنسان من الانشداد بالأهداف الصغيرة التي تفرزها نزعة (الطين) في الإنسان، وهي التي يسميها القرآن (الهوى)، وتفعيل (نفخة روح رب العالمين) فيه، فيندفع بموجبها نحو المثل الأعلى المطلق، وهو الله سبحانه.

جميع أئمة الإسلام ودعاته «إحيائيون» استهدفوا تفعيل عناصر الحركة في الثقافة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإسلامية لتوجيه الأمة نحو الإنتاج الحضاري.

نقف عند محطات من التوجيهات الحضارية للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) باعتباره رائد هذه الحركة بعد رسول الله(ص). ونبدأ بباب المختار من حكم أمير المؤمنين في نهج البلاغة/ شرح محمد عبده:

قَالَ (ع): «وَ قَدْ لَقِيَهُ عِنْدَ مَسِيرِهِ إِلَى الشَّامِ دَهَاقِينُ الأَنْبَارِ فَتَرَجَّلُوا لَهُ وَ اشْتَدُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ : مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ فَقَالُوا خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِهِ أُمَرَاءَنَا فَقَالَ وَ اللَّهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أُمَرَاؤُكُمْ وَ إِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَ تَشْقَوْنَ بِهِ فِي آخِرَتِكُمْ». (الكلمات القصار/ ٣٧)

هذا موقف حضاري هام من الإمام (ع)، فيه تأكيد على عزّة الإنسان، ونهي عن إهدار هذه العزّة على طريق تعظيم الأشخاص ـ مهما كانت مكانة هؤلاء الأشخاص ـ وتحذير لمن يحبّون أن يحاطوا بالأذلاّء المتملقين. يقول لهؤلاء الدهاقين (كلمة فارسية جمع دهقان وهو المزارع ويظهر أنهم إيرانيون): اتركوا هذا اللون من التعظيم للأمراء، فهو لا ينفع الأمراء، ولا ينفعكم في الدنيا ولا في الآخرة.

إنها دعوة لهؤلاء المخاطبين أن ينتقلوا من حالة الذلّ، والتبعيّة، والانبهار بأصحاب القدرة والقوّة، إلى حالة العزّة والاستقلال وتعادل الشخصيّة، وهي عناصر ثقافية هامة في «الإحياء» والإنتاج الحضاري.

* * *

وقال عليه السلام لابنه الحسن: « يَا بُنَيَّ احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً وَ أَرْبَعاً لا يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ إِنَّ أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ وَ أَكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمْقُ وَ أَوْحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ وَ أَكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ» (الكلمات القصار/ ٣٨).

هذا النصّ يبيّن سيرة الإمام في تربية المجتمع. وتقوم على التربية العقلية والنفسية والسلوكية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاهتمام بالجانب العقلي كثير في نصوص نهج البلاغة، والعقل موجّه للإنسان في سيره وسلوكه، والمسلم عقلانيّ في تفكيره، وهذه العقلانية طبعت الإنتاج الحضاري الإسلامي المعرفي.

الإنسان بحاجة إلى الشعور بالغنى، والإمام يوجّه هذا الشعور لأن يكون الغنى غنى العقل: إنّ أغنى الغنى العقل، لا المال والثروة.. ومقابل ذلك الفقر، فإن «أكبر الفقر الحمق» وهو أن لا يحكم المرء عقله في الأمور.

ثم في النصّ تربية نفسية تدعو إلى ترك «العُجب» والعجب من أعراض مرض التخلّف الحضاري، حيث تُصبح الذات هي المحور، وهي الإله، ومثل هذا الإنسان يشعر بالوحشة من الناس، والناس يستوحشون منه، لأنّ الذاتية تستفحل هنا، ولا تدع الفرد يتفاعل مع الجماعة.

وفي دعوة الإمام تربية سلوكية، إذ يدعو إلى ترك التفاخر بالأحساب، ويجعل معيار الكرامة حسن الخُلق. وحسن الخلق هو اتخاذ الموقف الكريم من الآخر، والتعامل مع الناس بصورة تحافظ على العلاقات الإنسانية العاطفية معهم. ومثل هذا السلوك لا يصدر إلاّ عن نفس تتعالى على ذاتيتها وتخرج من قوقعتها، فتحترم الآخر وتنفتح عليه، وهذا عنصر ثقافي من عناصر الحركة الحضارية.

* * *

وقال عليه السلام: «لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ وَقَلْبُ الأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ» (الكلمات القصار/ ٤٠).

في هذا النصّ أيضا تركيز على الجانب العقلي من التربية الإسلامية، وتوجيه لكلام الإنسان لأن يكون منطلقه العقل.

«لسان العاقل» أي نطقه وبيانه ومواقفه«وراء قلبه» أي وراء تفكيره وإدراكه. والقلب هنا كالفؤاد يرد في النصوص الإسلاميّة على أنه مركز الإدراك والفهم والتفكير.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخلاف ذلك الأحمق الذي تصدر مواقفه وأقواله من خلفية لا تستند إلى فكر ومنطق وتفهّم.

* * *

وقال عليه السلام: « قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ وَ صِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ وَ شَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ وَ عِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ» (الكلمات القصار / ٤٧).

الهمّة، والمروءة، والأنفة، والغيرة.. من العناصر المؤلفة للثقافة الإسلامية المتحركة، فالهمّة ترفع الإنسان لأن يندفع نحو الأفضل والأسمى، و«قدر الرجل على قدر همّته» وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم.

والمروءة: قيل إنها «الإنسانية»، وهو تعريف جميل أي أن يكون المرء حاملاً للخصائص التي يجب أن يتحلّى بها «الإنسان»، وقيل إنها الرجولة وهي بهذا المعنى، ومؤدّى المعنيين أن يكون الإنسان ذا شخصيّة محترمة، وأن يحترم الإنسان نفسه قبل أن يحترمه غيره. لذلك حين سُئل أحدهم عن المروءة قال: «أن لا تفعل في السرِّ أمرًا تستحيي أن تفعله جهرًا»

ومن يحترم نفسه لا يكذب ، فالكذب يصدر من نفس خسيسة لا قيمة لها عند صاحبها، من هنا كان صدق الإنسان على قدر مروءته.

والأنفة: هي العزّة، وهي عدم الخضوع للإهانة والذلّ، ومثل هذا الإنسان شجاع لا يضطرب له قلب ولا يرتجف له بدن أمام الأخطار، فشجاعة المرء على قدر أنفته.

والغيرة: أن يأبى الإنسان تعرّضَ محارمه للانتهاك. ومن تكن له هذه الصفة في محارمه فهو حريصٌ أيضًا على عدم انتهاك محارم غيره. ومن كان متساهلاً في محارمه فهو في محارم الآخرين متساهل أيضًا، ولذلك كانت عفّة الإنسان على قدر غيرته.

* * *

قال عليه السلام: « لا غِنَى كَالْعَقْلِ وَ لا فَقْرَ كَالْجَهْلِ وَ لا مِيرَاثَ كَالأَدَبِ وَ لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ظَهِيرَ كَالْمُشَاوَرَةِ» (الكلمات القصار/ ٥٤).

يعرض الإمام المعايير التي يجب أن تسود في المجتمع المسلم.

أعظم الغنى غنى العقل.. فمن كان عاقلاً كان حكيمًا ومن يـؤت الحكمـة فقـد أوتي خيرًا كثيرًا.

وأعظم الفقر فقر الجهل.. ويرى هنا أن الجهل لم يضعه الإمام مقابل العلم.. بل مقابل العقل.. لأن العقل يدفع الإنسان للتعلم إن كان جاهلاً، أما إذا فقـد العقـل فهـو جاهـلٌ حتى وإن كان متعلمًا، وما أكثر المتعلمين الذين يكتنزون المعلومات، ولكن ليـست لهـم القدرة العقلية على تحليلها والخروج منها بنتائج تعود بالنفع على حاملها وعلى المجتمع.

وأعظم الميراث ميراث الأدب.. والأدب في القرن الأول الهجـري يعـني كـلّ إنتـاج فكري أو شعوري ينتجه الإنسان، وهذا توجيه إلى تقديم ما يخلّد الإنسان بعـد موتـه.. ليس هو المال والثروة والبنون، بل هو عطاء الإنسان الفكري والشعوري.

ثم إن أعظم ما يدعم الإنسان في مواقفه هو الـمُشاورة. والمـشاورة ظـاهرة ثقافيـة هامة في إعداد الإنسان الحضاري. التخلّف الثقافي يَفـرز الاسـتبداد والاعتـداد بـالرأي، بينما الثقافة المتطوّرة المتحركة تفرز المشاورة والانفتاح علـى الـرأي الآخـر، واسـتماع القول واتباع أحسنه.

النصّ إذن يتضمن إضافات ثقافيةً هامة للحركة الحضارية.

* * *

وقال عليه السلام: « لا تَرَى الْجَاهِلَ إلا مُفْرِطاً أَوْ مُفَرِّطاً» (الكلمات القصار/٧٠).

الإفراط والتفريط من مظاهر الثقافة المتخلفة، لأنّ وراءها جهـل، والجهـل كمـا مـرّ ليس مقابل العلم، بل مقابل العقل. والعقل هو –كما ذكرنا - الحكمة الـتي أحـسن مـا قيل فيها: أنها وضع الشيء في محلّه.. والعاقل متعادلٌ في سلوكه، وهذا التعادل من سمات الإنسان الذي لا يتحرك من منطلق العقد النفسية والاجتماعية.. والتخلّف الثقافي يخلـق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه العقد، ومن ثم يخلّ بالتعادل، ويتجه الإنسان والمجتمع عندئذ إلى إفـراط في ممارسـة الأمور، أي الذهاب فيها إلى أكثر مما تستحق، أو إلى تفريط، وهو عدم إعطـاء الأمـور من الأهميّة ما تستحق. فيظهر الغلوّ في الحالة الأولى والتقصير في الحالة الثانية.

* * *

وقال عليه السلام: « إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ نَقَصَ الْكَلامُ» (الكلمات القصار/ ٧١).

في النص معيار آخر للتخلّف والتطوّر، المجتمعُ العاقل والفردُ العاقـل يعمـل أكثـر ممـا يتكلّم، أما التخلّف فلا يفرز إلا الكلامَ والهذرَ والجَدَل والخطابات الرنّانة، ولا ترى وراء كل ذلك من عمل إلا قليلاً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com